الإنتاج الدلالي في ضوء تفسير خصائص الصوت القرآني

د.شذى خلف حسين

كلية التربية ـالجامعة المستنصرية

لا تعرف كثير من الألفاظ القرآنية المتنوعة الدلالة الا عن طريق خصائص الصوت ودلالته، فإن فهم دلالة ألفاظ القرآن الكريم ضمن سيقاها لا يتم الا بعد التعرف على أسلوب القرآن من نغم الكلام الموفي بالدلالة على الغرض، وان القرآن الكريم أولى الكلمة عناية خاصة، فاختارها بدقة لتدل على مقاصده في كل سوره وآياته.

إن نغمات الحروف متلائمة بعضها مع بعض في الكلمة والكلمات التي يتألف من بعضها مع بعض جمل، والجمل يتألف نغمها بعضها مع بعض في القول كله، فإن الأداة تتضافر ألفاظها في نغم هادئ، وان كانت الآية في التبشير، وتتلاءم نغماتها القوية وان كانت في إنذار، أو وصف عذاب اليم.

نلاحظ أن لفظة (انفجرت) تتألف من حروف هي أقوى صوتاً من لفظة (انبجست) فلفظة (انفجرت) في تأليفها الصوتي من الفاء المهموس الرخو، والجيم المجهور الانفجاري الرخو، والراء المفخمة، والتاء المهموس الانفجاري، ولفظة (انبجست) في تأليفها الصوتي من الباء المجهور الانفجاري، والسين المهموس الرخو، وهما يتقاربان في بدايتهما من حيث الانفجار والانبجاس، لكن تختلفان في نهايتهما، فتستمر لفظة انفجرت في قوتها بصعود. بينما تضعف لفظة (انبجست) في هبوط، لأن الراء في انفجرت مفخمة، والسين في (انبجست) مهموسة، وإن الجيم هي أضعف من الجيم في (انفجرت) للتأثر بمجاورة السين المهموسة، والراء المفخمة، فاللسان يتهيأ للصوت اللاحق، فيحصل التأثر، وقد يكون التأثر طفيفاً كما في هذه الحالة، أو يكون ظاهراً كما في قلب (نون) انبجست إلى ميم، فيكون اللفظ (امبجست) وإخفاء النون في (انفجرت) بعدم اظهار النون بوضوح[(١)].

---

(١) ينظر: الصورة السمعية ودلالتها البلاغية في القرآن الكريم،عباس حميد السامرائي، اطروحة دكتوراه، آداب بغداد،٢٠٠١: ١٥١-١٥٢.

واستعمل الخطاب القرآني صيغتين هما صيغة (يختصمون) وصيغة (يخصمون) في قوله تعالى: [**أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**] [آل عمران: من الآية ٤٤] وقوله: [**مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**] [يس:٤٩] ففي سورة آل عمران إخبار عن ذكره في صدر الآية و(إذا) الظرفية نقلت دلالة (يختصمون) على الماضي، ولو قيل (يخصمون) هنا مكان (يختصمون) لذهبت تلك الدلالة لأن (يخصمون) تحكي الحاضر من خلال بنائها الصوتي، لأنها تحكي خصومة ابنه، وكذلك لو قيل (يختصمون) مكان (يخصمون) لذهبت الدلالة الصوتية المحاكية لشدة النزاع والخصومة، ثم نستمع إلى نبر الآية في (سورة يس)، فنحس قوة النبر في أكثر كلمات الآية يتساوق مع لفظة (يخصمون) فالنبر في صيغة (يفعل) الدالة على المبالغة في الحدث أقوى من النبر في صيغة (يتفعلون) لتكرار التضعيف الصوتي في (يفعلون)، إذ ان النبر من وظيفة الميزان الصرفي. لذلك جاءت(يختصمون) في (سورة آل عمران) لتدل على التنازع، وجاءت في (سورة يس) لتدل على مداهمة الصيحة لهم، وهم في حالة اضطراب شديد، فإن شدة الخصومة يرافقها انفعال شديد، وهذا يحول بين المرء وبين التعبير الدقيق، ويحول بينه وبين إتمام حروف بعض الكلمات في تعبيره، فكانت (يخصمون) إذ حكت حالهم في ألفاظهم التي استعملوها في خصومتهم، إذ كان لانفعالهم يحكون الألفاظ، وقد سقطت بعض حروفها، أو ادغمت بعض حروفها في بعض من غير سبب صوتي يسوغ الإدغام، وفي هذا تأكيد أن الأصوات بتناغمها تعطي قيماً تعبيرية دلالية متنوعة[١].

---

[١] ينظر: معاني القرآن، لابي زكريا يحيى بن زياد الفراء- ٢٠٧هـ الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ ٢/٣٧٩؛ جامع البيان عن تأويل القرآن الطبري(ابو جعفر محمد بن جرير- ٣١٠هـ، دار المعارف- مصر ١٩٨٥ ٣/٤١٠؛ معاني القراءات للازهري ص٤٠٢؛ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، للامام محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي- ٥٢٨هـ، دار الريان للتراث ط٣ ٣/٢٨٨؛ أنوار التنزيل وإسرار التأويل (المعروف بتفسير البيضاوي)، ناصر

ومن توازن النغم والإيقاع القرآني قوله تعالى: [**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**] [البقرة: من الآية ١٢٧] فجاء في الآية [**إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ**] بدلاً من قواعد البيت وفرق بين إبراهيم وإسماعيل لينتهي الكلام بلفظ إسماعيل وتتوازن أجزاء الكلام من حيث الجرس والنغمة(١).

ان النظم القرآني في جملته نظم يبدو فيه الجمال الإيقاعي، أو حلاوة النغمة، فنغم القرآن نغم داخلي يتخلل الكلام كله، وتنتظم جميع أجزائه وكلماته وحروفه، مع مراعاة التناسب بين نوع النغمة وصفاتها والفكرة، أو الموضوع، أو المشهد الذي تعبر عنه الآيات، ولعل جمال النغمة هو السبب في العدول في كثير من الآيات عن طرائق التركيب والتأليف المعتادة إلى صياغة خاصة في الكلام. وهذا بدوره يولد إنتاجا جديداً في الدلالة، لأن الفهم والاستيعاب لاسيما لتلك المسائل يولد فعلاً إنتاجا جديداً في الخطاب التفسيري. لأن المفسر بصورة عامة حين ينظر إلى تلك المسائل بروح العصر وثقافته أكيد سيحقق إنتاجا ليس قائماً على محاكاة مفاصل النص القرآني، فحسب، انما سيعاصر ويراهن الخطاب التفسيري على وفق مرجعياته القديمة والحديثة من خلال روح العصر التي تفرض عليه إطارها.

فالجمال الصوتي، أو النظام التوقيعي هو أول شيء أحسته الأذن العربية أيام نزول القرآن ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، فرأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة، وكأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة،

الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي- ٦٩١هـ، دار الجبل ١٣٢٩هـ (د.ط) ٢٧٠/٤؛ اللغة العربية معناها ومبناها، د.تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ص١٧٢؛ التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم وحيد العزاوي، دار الضياء للطباعة- عمان- الأردن ط١ ٢٠٠٠ ص١٠٤.

(١) ينظر: البناء الصوتي في البيان القرآني،د.محمد حسن شرشر،الطبعة الاولى،دار الطباعة المحمدية،القاهرة/مصر،١٩٨٨.: ٥٥.

قراءتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى، وانه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم.[١]

إن القرآن الكريم بتميزه في صوره وصوتياته وموضوعاته تتقاطر دونه نصوص فنية أخرى، فتعجز عن مساواته، أو اللحاق به، فالصورة القرآنية تعبر بالصوت أو باللغة المصورة المقروءة وترسمها بالدقة والروعة والجرس العميق والصوت المتسق المسافات الدقيقة النسب والابعاد المتناسقة مع جمال الصورة.

إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها. ففي قصة أصحاب الفيل قال تعالى: [**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**] [الفيل:٢] لقد جعل الله كيد أبرهة هباء، وارتد إليه، وبعد ذلك تسرد القصة القرآنية تفاصيل السر والمعجزة الإلهية في ثلاث آيات قصيرة مركزة، وهكذا وصفت واقعة الفيل ابلغ وصف، واختتمت بنهاية محكمة اشد الاحكام، وتضمنت لونا من التشويق وروعة الأسلوب وما في كلماتها من توقيع معجز.[٢]

إن النسق الفني في القرآن في عرض قصصه يرمز إلى الإيقاع المتعدد الألوان، ويؤدي وظيفة أساسية في البيان، ويعد الإيقاع اشعاعاً للنظم الخاص في كل موضع من كتاب الله، فهو ينتشر في كثير من سور القرآن، وحيثما تلا الإنسان القرآن أحس بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه، ويبرز بروزاً واضحاً في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير، والتشخيص عامة، وهو ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآن، ومن ذلك الإيقاع في قوله تعالى: [**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى** ≅

---

[١] الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمود السيد حسن مصطفى، القاهرة، مطبعة مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١٩٨١. ص٢١٤.، مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ عبد العظيم الزرقاني، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١. ٢٠٦/٢، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، احمد ياسوف، دار المكتبي ط١ ١٤١٥هـ- ١٩٩٤ ص ٧٥.

[٢] ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢٩١/٣، البيضاوي: ٣٣٩/٥.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى] [النجم: ١-١١] فهذه فواصل متساوية في الوزن تقريباً متحدة في حروف الفاصلة ذات الإيقاع متحد تبعاً لهذا مع تآلف الحروف في الكلمات وتناسق الكلمات في الجمل، فاللفظة تأتي لتؤدي معنى لها في السياق وتؤدي تناسباً في الإيقاع، واتزان الإيقاع في الآيات والفواصل. ويتلاقى جرس الحروف مع الإيحاء والمدلول، فالترتيب المتقارب المنسجم يؤدي إلى خاصية فريدة في القرآن، مؤكداً إعجازه فالحروف (الباء والتاء والثاء) مثلاً يجعل تقاربها المخرجي تقارباً في النسق والشكل والجرس وحروف (الحاء والخاء والدال والذال والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين) ويظهر الإيقاع في صفات الحروف، فهذه الحروف ذات صفة استعلائية وتلك صفيرية، وأخرى فيها تفش، ومطبقة ومجهورة، ومهموسة، وأصوات الحروف تنزل بمنزلة النغمات الإيقاعية، وتحدث وقعاً في النفس.(١)

فالإيقاع قائم على التناسب والانسجام بين أي الذكر الحكيم وهو عنصر من عناصر المفردة والجملة، والآية القرآنية مستقلة ومتصلة بغيرها من الآيات قال تعالى: [قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ] [الأعراف:١١٥] وقال: [قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى] [طه:٦٥] فقد ناسب رأس الآية ما قبله في كل من الآيتين، وصلة تغير رأس الآية بالسياق المعنوي واللفظي للنص القرآن، وهو أمر روعي كذلك في قوله تعالى: [قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ] [الأعراف: ١٢١-١٢٢]

---

(١) ينظر: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم: ١٠١؛ البيضاوي: ١٥٧/٥.

وقوله [**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**] [طه: من الآية ٧٠] فهذه المناسبة والمراعاة واضحة جلية فيها.(١)

إن وحدة الفاصلة في السورة هي نهاية تلوين جرسي يبتدئ في كلمات الآية وألفاظها، وان الحركة الجرسية في الآية كلها متكاملة بين الوحدة والتلوين وان هذا التلوين المتناسق قد ساهم في انسجامه في الهمز والمد وصفات الحروف واختيارها والكلمات اللغوية في وضعها اللغوي العام. فكثير ما تختم الفواصل القرآنية بحروف المد واللين، أو إلحاق النون للتمكن من التطريب، إذ يلحقون حروف الألف والياء والنون، الإرادة مد الصوت، وقد جاءت هذه الحروف على أسهل موقف وأعذب مقطع(٢)، فالفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد شحنة من الإيقاع، وشحنة من المعنى المنتمي للآية.

إن القرآن الكريم يتخير الأسلوب المناسب للفكرة، وينوع في نظام الفواصل والقوافي، بتنوع الموضوع الذي يعرضه ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها وطريقة بنائها اللفظي من حيث السهولة والخشونة وتخيّر الحرف الأخير الذي تختم به، ففي بعض الآيات تكون الفاصلة جملة متممة، أو مكملة للآية السابقة. نظراً لطول الآيات، في حين ان الفاصلة في الآيات القصار لا تعدو ان تكون كلمة، أو حرفاً وما انتهت آية قرآنية الا بفاصلة ملائمة كل الملائمة لمعناها، مستقرة في قرارها مطمئنة في مكانها غير نافرة ولا قلقة (٣)، وأن الفاصلة تأتي لوظائف معنوية تغني ما سبقها من صدر الآية أو الآيات، وذلك بضرب من المبالغة والتأكيد الذي يتجاوز المعنى التام، ويزيد عليه كمالا وجمالاً، فجاء الإيقاع القرآني قوياً في قوله تعالى:

---

١) ينظر: الدرة المصون،ابو يعقوب يوسف السكاكي(ت ٦٢٦هـ) عادل عبد الموجود وزميله، دار الكتب العلمية: ١٧٣؛ التعبير الفني في القرآن التعبير الفني في القرآن الكريم، د.بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٤.: **٢٠٣.**

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي-٩١١هـ وبالهامش (إعجاز القران للباقلاني)،المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان ١٩٧٣.: ١٠٥/٢.

(٣) ينظر: التعبير الفني في القرآن الكريم: ٢٠٤.

[**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ≅ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا**] [الكهف: ٩٩-١٠٠] قوياً في النفس في وصف الجموع في الحشر يوم القيامة باستعماله البديع للمصدر المؤكد (جمعا) و(عرضا) بما فيها من تقوية للمعنى، وما فيها من التنكير والتنوين اللذين يطلقان أعنة الخيال كما يحدثان في الوقت نفسه نغما إيحائيا يمتد.(١)

إن الفاصلة القرآنية تسهم في تحقيق التماسك النصي كما تسهم في تحقيق الاستمرارية وتكرارها، وان تعدد الفواصل نجدها في الغالب متقاربة في صفات الحرف الأخير من كل فاصلة، وان المناسبة التي تتحقق بوحدة الفاصلة ليست بين هذه الفواصل فقط. بل بينها وبين الدلالة التي تحملها هذه الفواصل، فكثيراً ما تحمل هذه الفواصل الدلالات المناسبة لصفاتها الصوتية من شدة وجهر ورقة ولين وتفخيم وترقيق وغيرها من صفات الأصوات.(٢)

إن التغاير في مبنى الفواصل من خواص نظم القرآن، وتأتي هذه الظاهرة تنشيطاً للسامع والقارئ، والملائمة والاتساق ومراعاة المعنى، وليس لمجرد الحلية اللفظية وتتحقق تلك الظاهرة في كثير من سور القرآن، ففي (سورة مريم) نجد حرف الألف الفاصلة في قصة مريم وعيسى **υ** ويستمر هذا السياق على حرف واحد وهو الألف إلى قوله تعالى: [**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**] [مريم:٣٣] ويتغير مبنى الفاصلة فيأتي على نظام حرف آخر وهو النون. وعندما نقف على نهاية كل فقرة من هذه الفقرات المشتركة في حرف الفاصلة نجد ان الفقرة وحدة مستقلة من حيث المعنى، فحرف الفاصلة قد روعي فيه المعنى والغرض، ففي القصتين كان حرف الفاصلة الألف وقبلها ياء مشددة أو حرف آخر، وعندما انتهى سرد حوادث القصة، وأريد تقرير الحكم اختلف الحرف تبعاً لاختلاف الموضوع، وان تنويع حرف الفاصلة ليس للاستمرار في شكل التغاير وتنغيم الصوت، وانما هو فوق

---

(١) ينظر: جماليات المفردة القرآنية: ٢٢٠.

(٢) ينظر: علم اللغة، محمود السعران، مطبعة دار المعارف، ١٩٦٢: ١٣٧.

تلك السمات لخدمة المعنى وتقريره، فالفاصلة القرآنية تأتي لمقتضيات معنوية مع نسق الإيقاع بهذه الفواصل وائتلاف الجرس لألفاظها التي اقتضتها المعاني.

ا لــتــنــا سب و ا لــتــر تــيــب:

حسن الترتيب:

إن الاحداث في عالم الواقع مترابطة بمعنى انها تترتب على بعضها، فالنتيجة تترابط مع الاحداث السابقة عليها، ومن ثم تكون الأفكار التي تعبر عن المقدمات والنتائج مترابطة ترابط الاحداث، وعليه يتداخل النص مع غيره للتعبير عن هذا الترابط بوسائل دلالية وشكلية مختلفة.

ويرتبط هذا النمط بمناسبة النزول وبين ترتيب الاحداث الواقعة، وبين الجمل المعبرة عنها، فقصة يوسف(على سبيل المثال) ذات احداث كثيرة لكنها متعاقبة ومرتبة حسب الترتيب المنطقي للاحداث والمقدمات والنتائج، وكذلك الآيات تقص القصة متماسكة بوسائل كثيرة، ومن ثم حدثت المناسبة بين عالم الواقع، وعالم النص وقصة أصحاب الكهف، وموسى، والرجل الصالح، ومريم وابنها، وغيرها من قصص الأنبياء الموحد فيها اربعة عناصر: موقف الأنبياء، وموقف أقوامهم، ثم موقف الله تعالى من المؤمنين ودعوتهم، وموقف المكذبين.

ومن حسن ترتيب الجمل أيضا في الإعجاز القرآني ما يتجلى في قوله تعالى: **[وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ]** [هود:٤٤] فانك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة الا الأمر الذي يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضه ببعض، وان لم يعرض له الحسن والشرف الا من مما لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى ان يستقر بها إلى آخرها، وان الفضل نتائج ما بينهما وحصل من مجموعها، فنداء الأرض وجعل الفعل على صيغة (فعل) الدالة على انه لم يفض الا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وقضي الأمر، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو: استوت على الجودي، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط

الفخامة، والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة (قبل) في الخاتمة بـ(قبل) في الفاتحة.[١]

ومن قوله تعالى أيضاً ما نراه في قصة أصحاب الكهف: [**لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**] أي لو أشرفت عليهم وهم نيام في كهفهم على هذه الحال لوليت منهم فراراً من الوحشة والرهبة التي حفظهم الله بها، ولملئت منهم رعباً حين تطبع صورتهم في ذهنك فلا تكاد تفارقك، وقرئ (ولملِّئت) بالتشديد مبالغة في الفعل أو تكراراً له.[٢]

وعن سر تقديم الفرار على الرعب يقول (أبو السعود):" ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للإيذان باستقلال كل منهما في الترتب على الإطلاع إذ لو روعي ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم ترتب المجموع من حيث هو عليه وللإشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد"[٣].

وليس السبب في هذا الرعب والتولي هو ما قاله بعض المفسرين أن شعورهم وأظفارهم طالت؛ إذ لو كان الأمر كذلك لكان أول تساؤل لهم بعد أن استيقظوا من نومهم. والتناسب والترتيب من أسس البيان الاعجازي تناسق الآيات وتناسبها وتلاؤم المفردات وانسجامها، ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضوح والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما تهيأ له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها بعض ويساند بعضا، ولن تجدها الا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم والإيقاع، ولا يمكن ان توضع كلمة بدل اللفظة القرآنية. حتى وان كانت تلك اللفظة من المترادفات في المعنى، فانها لا تؤدي دقة

---

[١] ينظر: الكشاف ٢/٣٩٧-٣٩٨ الظاهرة الجمالية: ١٢٧.

[٢] قراءة التشديد للمبالغة، وهي لابن كثير ونافع وابن عباس وأهل مكة وأهل المدينة وقرأ الباقون بتخفيف اللام- وهم على أصولهم في الهمز- النشر في القراءات العشر،لابن الجزري ابي الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع، مطبعة مصطفى محمد، مصر (د.ت) ٢/٣١٠ والمحرر الوجيز لابن عطية(ابو محمد عبد الحق بن غالب) تحقيق علي عوض وزميله، دار الكتب العلمية: ١٠/٣٧٩.

[٣] إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، تفسير العلامة ابي السعود(ت ٩٨٢هـ) دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٤٧هـ: ٥/٢١٢.

ومقدار المعنى ذاته، وتركيب حروفها لا يفي بالغرض الصوتي في سياق الجملة القرآنية ولا تنسجم مع التركيب القرآني في جرسه الداخلي أو الإيقاع المطلوب في فاصلة الآية، فالتناسب القرآني في جرسه وإيقاعه معجزة جرسية مثل ما كان في بيانه.(١)

إن الظاهرة الصوتية هي التي تنشأ من تآلف الحروف والكلمات والفواصل القرآنية تبدو واضحة في كل آية ومقطع وسورة وفي القرآن. وان أكثر من فاصلة الميم والنون المسبوقتين بالممدود، فان فواصل أخرى في حروف مد ومصمتة قامت بتوزيع جماليات متناسبة مع جو السورة ومشاهدها. وان الجرس الداخلي والظاهري يوحي بأهمية تأثير الصوت المتناسق والجملة الصوتية في النفس والوجدان لا من حيث التأثير التغييري وحسب، ولكن من حيث التأثير الفني الجمالي أيضا.

إن أصوات الحروف انما تتنزل منزلة النبرات الإيقاعية المرسلة فلابد لها مع ذلك نوع من التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الإيقاعي ولا يكون الا من الترتيب الصوتي الذي يشير بعضه بعضاً على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وابعاده. ان الاسرار الجرسية للفواصل القرآنية متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، فالجرس للفاصلة القرآنية يتفق مع الموضوع والجو والمشهد القرآني.(٢) فللصوت أهميته في مراعاة المواقف المصورة. إذ يظهر التباين في التشكيل الصوتي بين الحديث عن المؤمنين وبين الحديث عن الكافرين في سورة البقرة. مثلاً تجد في الحديث عن المؤمنين، المد في فواصل الآيات مع الحروف السهلة ذات الوقع الخفيف على الاذن وتعطي الكلام وقعاً لطيفاً مناسباً للتأثير، وفي الغضب والسخط تجد الحروف قوية الوقع شديدة التأثير. مثل الميم الساكنة في الحديث عن الكافرين، ثم هذه الألفاظ (صم، بكم، عمي، رعد، برق) والحركات

(١) ينظر: الظاهرة الجمالية: ١٩١.

(٢) ينظر: الظاهرة الجمالية: ٢١٧.

المتلاحقة ذات الجرس القوي (صواعق - ظلمات) تقرع الأذن بأصداء المشهد المخيف، حتى تشترك في الإحساس بما أحس به الفكر وما وقع في القلب.

وقد وظفت طبيعة الأصوات لتجسيم المواقف، ومن يقرأ الآيات القرآنية يتوصل إلى هذه النتيجة، فالمواقف في القرآن هي التي تحدد طبيعة الحروف والحركات، فالأصوات الشديدة تجسم المعاني المطلوبة، والأصوات الخفيفة تجسم المعاني المطلوبة، وقد جسم الصوت الفكرة مشاركة فعالة معبرة عن الانسجام بين الشكل والمضمون.(١)

وأداء الكلمة أو الجملة القرآنية له موازين وضوابط لفظية لا ينبغي تجاوزها، فللحروف صفات ومدات ومخارج وحركات، وللتركيب صفات ومدات ومخارج وحركات تنسق كلها على نحو واع وقوانين ثابتة، وربما كان لتقسيم القرآن إلى سور، ثم آيات مختلفة في الطول والإيقاع والفاصلة أثره الواضح، وأهميته في التلوين الجرسي المتعدد. وللأداء الصوتي أهميته بما فيه من الوقفات الصوتية والحركات والذبذبات في تكوين التناسب الجرسي للصوت، وقد تصور الحركة بالصوت. فمن ذلك قوله تعالى: [**الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**] [يوسف: من الآية ٥١]، فالفعل (حصحصَ) الذي بمعنى توضح وتبين بإمكاننا ان نشم رائحة المعنى ومعالم الصورة من صوته(٢) ومثله قوله تعالى: [**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**] [القصص: من الآية ١٨] فالفعل (يترقب) يرسم هيئة موسى ‌‌u الحذر المتلفت في المدينة التي يشيع فيها الأمن والاطمئنان. وتقديم كلمة (خائفاً) على يترقب يوحي بمدى الفزع الذي استولى على موسى u، فضلاً عن إيحاء (يترقب) بسمته الشخصية الانفعالية المجسمة بهيئة الخائف القلق، ومن طرف آخر نلمح في تقديم (خائفاً) على (يترقب) تعلقه بفعل القتل. ولهذا جاء بصيغة اسم الفاعل الذي يبين تمكن الشعور بالخوف في نفس موسى u، وورود الترقب بالصيغة الفعلية دال على حدوث وتجدد ناجمين

---

(١) ينظر: جماليات المفردة القرآنية: ٢٠٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن الفراء ٢/٤٨.

عن حالة الخوف من الأخذ بحادثة القتل. وان خوف موسى هو جزء من خوف قومه من أذى فرعون وجنده.(١)

وفي انقلاب سحرة فرعون بعد رؤية البرهان الإلهي في المعجزة قوله تعالى: [**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**] [الأعراف: ١٢٠]، المشهد يصور الشعور القوي الذي ترسخ في أعماقهم وسجدوا للقوة العليا، وكأن الشعور الجديد قد القى بهم على الأرض ساجدين، مع بناء الفعل بصيغة المجهول (القي) لتصوير القوة الخفية الحقيقة بالعبادة والنيابة إليها.

ومن تصوير الحركة باللفظ قوله تعالى في سعي الرجل المؤمن [**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى**] [يس: من الآية ٢٠] ليدافع عن موسى **υ** فالسرعة حركة مطلوبة في هذا الموقف لانسجامها مع الدافع الشعوري القوي منه.

ويأتي التناسب اللفظي بين (ضلالا) في قوله تعالى: [**وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا**] [نوح: ٢٤] وبين (أضلوا) وبين (تبارا) في قوله تعالى: [**وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا**] [نوح: ٢٦] وهو سبب ختم الآية الأولى بـ(ضلالا)، والثانية بـ(تبارا) وهو تناسب لفظي ظاهري يعضده التناسب المعنوي لأن الإضلال في الأولى غير الإهلاك والاستئصال في الثانية.(٢)

فاختيار اللفظة، أو التركيب يتسق بمعانيه مع موضوع النص، أو المعنى العام وذلك على وفق ترتيب وتناسب مقصود في رسم الشخصيات المختلفة في تعبير متناسق مع نفسية الشخصيات، وتسلسل الاحداث والوقائع، ومجريات الأحوال.

---

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن،سيد قطب، دار الشروق، ط٥، ١٩٧٩: ٧٩، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية،محمود السيد حسن مصطفى، القاهرة، مطبعة مؤسسة شباب الجامعة،ط١ ، ١٩٨١: ٧١، في ظلال القرآن، سيد قطب، طبع دار الشروق، بيروت،١٩٨٠: ٣٣١/٦.

(٢) ينظر: الدرة المصون: ٥٠١؛ إسرار التكرار في القرآن الكريم،محمود بن حمزة بن نصر الكرماني(ت ٥٠٥هـ) دراسة وتحقيق عبد القادر احمد عطا، دار بوسلامة، تونس، ط١، ١٩٨٣: ٢٠٩؛ البيضاوي: ٢٥٠/٥.

فقد عرض القرآن شخصيات مؤمنة، وجاحدة ضعيفة، وذات نفوذ، وكانت عروضه متنوعة بين الطول والقصر والتوسط، ولكن ملامحها ودقائق نوازعها وخفاياها تبدو واضحة ما دام في عرضها دروس وعبر، فالقرآن عرض لشخصيات عديدة منها شخصية فرعون الذي كان يعلن أنه الرب الأعلى، والاسكندر، والأنبياء، وان اشتركوا جميعاً في الرسالة والتبليغ والصدق والأمانة، فان لكل شخصية جوانب فردية ظاهرة وخفية واتجاه إنساني قد لا توجد في شخصية أخرى.(١)

إن من خصائص نظم القرآن، المسحة اللفظية التي تتجلى في اتساق الألفاظ وائتلافها في الحركات والسكنات اتساقاً وائتلافاً رائعاً يسترعي الاسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن ان يصل إليها أي كلام آخر، فنظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه، فحروفه متآخية في كلماته لها إيقاع ونغم تهتز لها المشاعر وتسكن عندها فتطمئن النفوس، والكلمات في تآخيها في العبارات تنتج إيقاعا ونغماً يختص به القرآن وحده، ولا يمكن ان يلحق به كلام آخر، فهو كلام الله تعالى وفوق طاقة البشر، فمن التناسب والانسجام والاتساق قوله تعالى: [**قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**] [هود: ٨٧] فانه لما تقدم في الآية ذكر العبادة وتلاه ذكر التصرف في الأموال اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد مع الترتيب، لأن الحلم يناسب العبادات، والرشد يناسب الأموال.

ومن الربط بين قوة الحرف والموقف المصور قوله تعالى: [**قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**] [هود: ٤٨] لقد جمعت هذه الآية ثمانية عشر ميما نثرت بين كلمات الآية في مقطعين حتى ليبدو المقطع، وكأنه مشكل من ميمات، والميم وحده ثقيل مضغوط يشد عضلات الفم كلها حتى يؤدى على هيئة صوت. فكيف به إذا تكرر ثم كيف يكون ميزانه من الثقل حين يتكرر بهذه الكثرة المتلاحقة، وليس هذا النغم المجلجل المتتابع من هذه الميمات الا أداة يقتضيها المقام من دواعي القوة التي

(١) ينظر: الظاهرة الجمالية: ٢١٤.

تحيط بالموقف وتضافره، فقد ربط بين قوة الميم والموقف بعد الحديث عن الطوفان واستواء السفينة. (١)

ومن عدول نظم الآية عن الترتيب لإرادة ضرب من البديع قوله تعالى: [**لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ**] [المائدة: من الآية ٢٨] الترتيب في النظم ان يقدم الفعل في الجملة الفعلية ويعقبه الفاعل ثم يقدم بعد الفاعل المفعول المطلق ثم المفعول به. فيقدم منه ما تعدى الفعل إليه بنفسه، ثم يأتي بعده بما تعدى الفعل إليه بغيره. إلا ان يمنع من ذلك مانع لفظي، أو معنوي، فالآية لو جاء نظمها على الترتيب إذ يقال: لئن بسطت يدك إلي لتقتلني ما انا بباسط يدي إليك لان تلك يحصل فيها العيب المسمى سوء الجوار الموجب للتركيب ثقلاً يعسر النطق به بعض العسر، فعدل عن الترتيب لأجل ذلك إلى سوء الجوار، وانما كان سوء الجوار يحصل على الترتيب لتوالي ثلاثة أحرف متقاربات المخارج وهي (الطاء والتاء والياء) عند قوله لئن بسطت إلي يدك، وإذا جاء النظم على ما جاء عليه امن هذا المحظور، ولما كان هذا المحظور معدوماً في ترتيب نظم عجز الآية التي نظم العجز على الترتيب، فقدم فيه المفعول الذي تعدى الفعل إليه بنفسه على المفعول الذي تعدى إليه بالحرف فقال: ما انا بباسط يدي إلي لاقتلك فنظم الآية عدل فيه عن الترتيب إلى حسن الجوار.(٢)

التكرار الدلالي:

التكرار في القرآن جاء مناسباً للسياق الذي ورد فيه تماماً، إذ يهدف إلى اغراض فنية يتجدد بها الأسلوب، ويتنوع العرض والأداء، فيخرج المعنى الواحد في صور متعددة تعدد المقاصد والاغراض المتعلقة بالمعاني والأفكار. فالتكرار الذي وقع في القرآن الكريم كان في الموضع التي جاء فيها نغما جديداً من أنغام الحسن والإبداع مما يجعل التكرار مستقراً في النفوس ثابتاً راسخاً. وذلك في التركيب نفسه

(١) ينظر: إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة،ط١، : ٢/٢٧٧.

(٢) ينظر: البناء الصوتي في البيان القرآني: ٥٦.

من لغته وعرضه، وفي النسق القرآني الذي يعد جزءاً أساسا من النص، وفي الإلحاح على جملة أو جزء منها في سورة واحدة أو عدد منها، وقد ترد آية كاملة في المصحف الشريف. فمن تكرار بعض القصص والاخبار يأتي لتحقيق غرضين مهمين:

الأول: إنهاء حقائق ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها، وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب، ولقد أشار القرآن إلى هذا الغرض بقوله: [**وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**] [طه: من الآية ١١٣].

الثاني: إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة، وبأساليب مختلفة تفصيلاً وإجمالاً، حتى يتجلى إعجازه، ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأنه، إذ من المعلوم ان هذا الكتاب إنما تنزل لإقناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشر، ولإلزامهم بالشريعة التي فيه، فلابد فيه من الوسائل التي تفيء بتحقيق الوسيلة إلى الأمرين. ومن هنا كان من المحال ان تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ، ويدور ضمن قالب واحد من التعبير، بل لابد أن تجده في كل مرة يلبس ثوباً جديداً من الأسلوب، وطريقة التصوير والعرض، بل لابد أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة، ومثاله قصة موسى υ لانها اكثر القصص في القرآن تكراراً، فهي من هذه الوجهة تعطي فكرة كاملة على هذا التكرار. ووردت هذه القصة في حوالي ثلاثين موضعاً، ولكنها في كل موضع تلبس ثوبا جديداً وتخرج اخراجا جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه، وتهدف إلى هدف خاص لم يذكر في مكان آخر، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل. وهذا موجود في معظم الفصص القرآني وتمثلاته.

من التكرار الدلالي قوله تعالى: [**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**] [الرحمن:١٣] فقد ترددت الآية الكريمة لتقوم دورها في التأكيد والتقرير والإلزام، والكلام فيها موجه إلى الثقلين، إذ يقع عليهما التكليف، فقد تكررت الآية إحدى وثلاثين مرة، وكان هذا

المقطع آية مستقلة من بين آيات السورة التي تبلغ ثماني وسبعين آية، فقد ذكرت الآية عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم وعقب ذكر النار وشدائدها، لأن في صرفها ودفعها نعما توازي النعم المذكورة في وصف الجنان وأهلها وعلى عدد أبواب الجنة وتكرار هذه الآية يبدو في ثلاثة مواضع، أو في قضية واحدة، ثم في مصائر الناس الثلاثة: في الإيمان بالخالق القادر الحكيم الباقي بعد فناء عباده، وفي التحذير من النار وعقوبتها، وفي الترغيب بثواب الله تعالى ودخول الجنتين وما اعد الله فيها من النعيم المقيم(١)، ولعلك تسمع صوت هذا المد الطويل في آلاء يكتنفه ثلاثة ممدودات قصار تؤدي مع التكرار العام للآية تنغيماً داخلياً له أخذه وأسره، وان هذا المد قد وقع في لفظ الارتكاز من مدار المعنى في آلاء ليزيد تمييزاً ووضوحاً في مقام التمنن والإلزام بالحجة، فلا احد يملك ان يكذب بالآء الله في هذه المقامات جمعيها.

وتكرر قوله تعالى: [**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**] [المرسلات: ١٥] إحدى عشرة مرة، وعد هذا المقطع آية بذاتها من بين آيات السورة، وهي خمسون آية وتتحدث هذه السورة عن هول اليوم الآخر وعذابه، فلا غرابة في ان تكرار هذا الإنذار يملأ القلب رعباً من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب. وجاء التكرار عقيب آية غير الأولى فلا يكون تكرارا مستهجناً ولو لم يكرر كان متوعداً على بعض دون بعض قال (الكرماني): " إذا اعيد الكلام لأسباب مختلفة فلا تكرار"(٢) وان من عادة العرب الاطناب والتكرار كما في عادتهم الاقتصار والإيجاز وبسط الكلام في الترغيب والترهيب ادعى إلى إدراك البغية من الاختصار والإيجاز. ربما ينطلق الإيجاز والاختصار والإطناب من النظر إلى القصة القرآنية وفهمها إذ " لو ان العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة، ولعرف منذ اللحظة الأولى ان الذي عده تكرارا ليس من التكرار في شيء، لأن هذه

---

(١) ينظر: البيضاوي، ٥/١٧١، إسرار التكرار: ١٩٨، الظاهرة الجمالية: ١١٤، البناء الصوتي في البيان القرآني: ٩٢.

(٢) إسرار التكرار: ٥٧، ٢١٣.

المواد التاريخية غير مقصودة من القصص، وان مقاصد القرآن من مواعظ وعبر. ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن معين عنها في آخر ومن هنا كان الاختلاف. لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية"[1].

وكررت الفاصلة [**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**] [الشعراء:٩] ثمان مرات وجاءت كل واحدة منها متمكنة من موضعها، وذلك عقب كل ما يجدر ان يكون عظة يعتبر بها كانفلاق البحر لموسى وندم جند إبليس بعد مواجهة مصيرهم وتكررت بعد قصة قوم صالح ولوط وشعيب بما هو معروف من مصائرهم، وكأن تلك الآية المكررة تشير إلى مرحلة مهمة يحسن الوقوف عندها والتريث لتدبرها وتأمل ما تحوي من دروس مما مضى من حوادث التاريخ، وختم الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة للحديث عن مصير الكافر والمؤمن فهو عزيز يعاقب الكافر ورحيم بمن آمن. انطلاقاً من ان التكرار يخدم غرضين في آن واحد، هما الغرض الفني الذي يتمثل في تجدد أسلوب القصة من تصوير وتفنن وعرض وإيجاز وإطناب وتنوع في أدائها لفظاً ومعنى. وغرضاً نفسياً، بما له تأثير في النفوس..[2] هذا من جهة ومن جهة أخرى فهناك من يرى ان التكرار يؤدي" وظيفة حيوية في إبراز جوانب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير، بل لابد ان تعاد العبارة مرة ومرة لكي تحمل في كل مرة بعضاً من شحنات المشهد، وان كانت كل عبارة منها تعطي صورة مقاربة للمشهد كله[3]. كل تلك الأمور تساعد الباحث على فهم واستيعاب عملية الإنتاج الدلالي اين تتجه..

---

(١) الفن القصصي في القرآن، محمد أحمد خلف الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشرنالقاهرة، ط٢، ١٩٥٧: ٨٧.

(٢) ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نقرة، الشركة التونسية لفنون الرسم، ١٩٧٤،(د.ط) ١١٥.

(٣) القصص القرآني في منطقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب،مطبعة السنة المحمدية، ط١ ن١٩٦٤.: ٥٦.

وكررت الآية [فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ] [القمر: ١٦] وذلك إشارة إلى موقف الأمم الغابرة من دعوة الأنبياء بشكل موجز للموضع، وجاء التكرار في هذه السورة لأنه لم يوضح مجملاً، ولم يفعل فعلا مهما. بل أدى دوره في التأثير فبقيت السورة مثالاً للإيجاز القوي الواضح بألفاظه، والمتماسك بين حروفه، والمتجاذب بين كلماته، والمتساوق في نغمه، فلا خلخلة ولا ثقل بما يثبت من تقرير وتوكيد وتثبيت.[١] ويقول الباقلاني" ان عرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة دليل الإعجاز"[٢] ودليلنا على ذلك القول ان الله تعالى لم يذكر بأساليب مختلفة ما يتعلق بمقتل أنبياء بني إسرائيل، ولم يذكرها الا ذكرا عارضاً لا تفصيل ولا تجسيد، ويؤكد ذلك الدكتور تهامي نقرة وعنده كان ذلك مراعاة للجوانب النفسية[٣]. لأن الأثر النفسي هو الحافز الأول للتكرار في القصص القرآني. فان الله تعالى أوجز قصة نوح **u** في مشهدين متوالين الأول في سورة الأعراف، وأسهب في بيانها في سورة هود.

وليس بتكرار قوله تعالى: [**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ≅ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**] [الشرح: ٥-٦] لأن المعنى: إن مع العسر الذي أنت فيه من مقاساة الكفار يسرا في العاجل وان مع العسر الذي أنت فيه من الكفار يسرا في الآجل، فالعسر واحد واليسر اثنان. [٤]

---

(١) ينظر: البيضاوي: ١٦٦/٥-١٦٧.

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني: ٢٨٨، هناك عدة آراء حول التكرار، لأنه الموضوع الذي يجعل المعنى جوهر محض واللغة له رداء حول التكرار لا تمس حقيقته، هذا ما استنكره القاضي عبد الجبار في نظرية النظم التي أطلقها عبد القاهر الجرجاني لأن الموضوع يدخل ضمن التكرار الذي أوجز فيه الزركشي "ان التكرار لا يأتي الا ويقدم زيادة في القصة لم تكن قد وردت من قبل" البرهان في علوم القرآن،بدر الدين محمد عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه،ط١ ١٩٥٧: ٣٧/٢.

(٣) ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن: ٦٦.

(٤) ينظر: إسرار التكرار: ٢٢١، البيضاوي، ٣٢١/٥.

وتكررت قصص الأنبياء في السور القرآنية، إذ تكرر ذكر موسى υ في ستة وثلاثين ومئة موضع في أربع وثلاثين سورة، فالذي تكرر تكراراً تاماً هو اسم موسى υ أما ما يخص قصته، فان ما ذكر في هذه السور هو مواقف متعددة تمثل في النهاية قصة كاملة، فذكر القصة بهذه الكيفية يعد نوعا من أنواع المناسبة بين السور، وان ذكر القصة الواحدة في أكثر من سورة تمثل كل سورة مرحلة من مراحل القصة إذ تبدأ بالحديث عن ودلاته، ومصاهرته الشيخ الكبير، وبعثته بالوادي المقدس وعودته إلى مصر ودعوته لفرعون وما حدث بينهما، والسحرة وغرق فرعون ومواقف بني إسرائيل المتعددة معه وأخيه ومسألة البقرة، وإيذاء بني إسرائيل لموسى، والسبعين رجلا، وطلب رؤية الله جهرة، والتبشير بمحمد ρ والعبد الصالح، وغيرها من المواقف التي تمثل حياة موسى υ شبه كاملة التفاصيل خاصة ما يتعلق بدعوته، فهذه المواقف في مجموعها تكون القصة الكاملة، ممكن ان تعد تلك التمثلات عبارة عن استهلال " يقدم إطارا عاماً يحدد بوساطته زمان الحدث أو مكانه، ويرصد في الوقت نفسه تطور الحدث في الرواية (القصة)"(١)، لاسيما في تلك التمثلات (الاستهلالية).

إن صح التعبير تحمل في طياتها شحنات الطاقة الكامنة التي ممكن ان تنفجر في مسيرة السرد فيما بعد، فيتبنى السرد على وفق أنموذجها المصغر القصة الأم، وتدل عليها. لذا يمكن القول هنا ان ابرز ما يميز القصة القرآنية وبالأخص الطويلة منها ذلك الاستهلال الذي يعد في اغلب القصص أرصادا لها. فهذا الاستهلال، أو التكرار، أو التمثيل هو قصة مصغرة عن القصة الأم. لكن معظم القصص القرآني المصغر، أو الطويل يخضع إلى نظام تركيبي وظيفي يكون بمثابة الإطار الشامل له، ويبدو لنا مما تقدم ان البناء الوظيفي لهذه القصص القصيرة والمكونة لقصة اكبر كان هو الحافز على استمرار السرد، وان دلالة هذا التركيب تبدو من خلال هذا التكرار للوظائف.

---

(١) البناء الفني لرواية الحرب في العراق،دارسة انظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة، عبد الله ابراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٩٨٨: ٢٩٠.

وهنا يبرز عنصر التماسك بين هذه النصوص المكونة للقصة في حلقات تعرض كل منها في سورة أو أكثر مع اختلاف الأسلوب بما يتلاءم مع جو السورة العام وهدفها.[1] فالتكرار يشكل عند تلاوته ما يشبه الإيقاع الثابت الذي نسمعه بعد مرور فترات زمنية متقاربة، إذ يؤكد الاحداث من جهة. فضلاً عن تأثيره في النفوس، لأن استخدام الجمل المتشابهة في الاحداث وغيرها يكون له الأثر النفسي الكبير في المتلقي، وهذا ما تبغيه القصة في القرآن الكريم. لأن الأسلوب المستخدم هو أسلوب الدعوة لله .

وكذلك قصة نبي الله إبراهيم υ إذ تكرر ذكر إبراهيم υ في ثلاثة وستين موضعاً في خمس وعشرين سورة وهذه السور تعرض لمواقفه υ مثل نصحه لأبيه وقومه، وموقفه من أصنامهم ومحاكمته، ونصر الله له ومحاجته الملك وموقفه من هاجر ومن ابنه إسماعيل، ومن الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط والبشرى له بإسحق υ وغيرها من المواقف التي تمثل قضيته، فالقضية واحدة والنبي واحد، والدلالة واحدة، وكذلك الحال في قصص جميع الأنبياء فكلهم أوحى إليه وكلف بالدعوة وآمن بها، وكذبه معظم قومه، وصدقه القليل وتكفل الله بالمكذبين واوعدهم بالعذاب الشديد، ونصر المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار.

ولجميع القصص وحدة دلالية ووحدة شكلية كما يظهر في تكرار الجمل التي قالها الأنبياء لأقوامهم وردود أقوامهم، وتعقيب الله تعالى على هذا.[2] والاهم من هذا ان رصد التحولات في البنى المتكررة والمتشابهة على مستوى القصة أو المشهد في البنى المتشاكلة وتحولها من الخاص إلى العام، من اصغر عنصر إلى التركيب كله. ضروري جداً، لأن رصد فاعلية أي عنصر من عناصر السرد المتكررة التي يطرأ عليها التحول تكشف عن وظيفته الجديدة داخل التركيب. لأن كل تكرار، يقوم

---

(١) ينظر: علم اللغة النصي: ١٧١، دراسة نصية أدبية: ٣٧-٤٨.

(٢) ينظر: علم اللغة النصي: ١٧٦، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، د.سليمان الطراونة، ط١، ١٩٩٢: ٧٣-٩١، الفن القصصي في القرآن : ٢١٥.

بوظيفة مخالفة لغيرها من الوظائف السردية أو التركيبية، لأنها ممكن ان تكون تفسيرية، أو تكميلية أو تذكيرية، لاسيما وأن كل تحول يطرأ على صيغ الخطاب القرآني في البنى المترددة تكون وظيفته إعادة تشكيل الحدث، وهذه الاستعادة تولد في الوقت نفسه، أو تعطي المفسر بصورة عامة متسعاً من الترف الذهني والاستيعابي الذي يولد أكثر من إنتاج دلالي، لأن الاستعادة تعطي أكثر من توضيح وتفسير للسائلين عن حقيقة القصة، أو ما يتعلق بها. وتجد التكرار الدلالي في سورة نوح يدور حول ثلاثة محاور: الله سبحانه في إرساله نوحاً وتكليفه بالدعوة، ونوح الذي تلقى الدعوة والتكليف وقام به، وقوم نوح الذين تلقوا الدعوة من خلاله ولكنهم اعرضوا عنها، والاستمرارية الكائنة بين هذه المحاور تحققت من خلال تلاؤمها في قضية واحدة هي الدعوة وموقف الاطراف الثلاثة منها وان التماسك قائم بينها عبر علاقة الإسناد من خلال عرض إسناد هذه الأمور إلى الله تعالى والى نوح υ وإلى قومه.

وتجد التكرار الدلالي في سورة القصص بذكر قصة فرعون، وقصة قارون وبيان عاقبة الاستعلاء في الأرض والتكبر فيها، وبيان استخلاف الفئة المؤمنة المستضعفة وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، وتحمل السورة دلالة متماسكة على الرغم من اختلاف القصتين، وان وحدة الهدف توحي بوجود التكرار الدلالي في استعلاء فرعون، ورغبة الله تعالى في المن على المستضعفين ووعدهم بالتمكين في الأرض، والوعيد لفرعون وهامان وجنودهما، وامتداد دلالة العلو في الأرض والتكبر والفساد إلى قصة هارون، وتتكرر عاقبة فرعون وقارون في القصتين، ثم تتحقق إرادة الله تعالى التي ذكرت في أول السورة وفي نهايتها، فتكررت حادثة فرعون وقارون، وتكررت عاقبة كل منهما مع نصر الفئة المؤمنة في الدنيا والآخرة على الفئة الكافرة في القصتين، فان ما حدث في قصة موسى مع فرعون وهامان وجنودهما، وما حدث لقارون بعد تكبره واستعلائه هذا يعد بالفعل من آيات الله تعالى في خلقه.(١) ومن هذا

---

(١) ينظر: علم اللغة النصي: ٥٠ دراسة نصية أدبية: ١٩٩ الفن القصصي في القرآن الكريم: ١٩٠-١٩٥.

الأمر نجد فيضاً كثيراً من هذا التحول في البنى التركيبية بإطار النسق الواحد (المكرر) أو المردد بأسلوب السرد المروي من منظور إلهي متنوع.

ومن تعدد القصص الخمس في سورة الكهف، يمكننا ملاحظة وحدة الهدف من كل قصة، فكلها تبغي الوصول إلى نتيجة انتصار الخير والحق دائماً، فانتصر أهل الكهف بالحفاظ على عقيدتهم ونجاتهم، وانتصر الرجل المؤمن بإيمانه بما عند الله، وانتصر المؤمنون بعدم إتباع الشيطان، وانتصر أصحاب السفينة بنجاتهم من الملك الظالم، وانتصر الأبوان المؤمنان بقتل ابنهما الذي كان سيرهقهما طغيانا وكفرا، وانتصر الغلامان بصلاح أبيهما والحفاظ على كنزهما، هذا فضلا عن تكرار هذا المعنى في التعقيبات التي بين هذه القصص توحي بالاستمرارية القائمة في تحقيق التماسك فضلا عن تكرار الجمل والعبارات في الآيات، وهي تؤكد قضية عدم الإشراك بالله تعالى.[1] إن التكرار في النص القرآني نجده في كل مرة قد لبس ثوباً جديداً من الأسلوب وطريقة التصوير والعرض، لأن التغيير يدخل في جزء من بنية ما بحدود نسق معين، فينتج التحول الجزئي في الشكل وهو ما يطلق عليه المغايرة المشابهة، لذا فالجزء المتحول في بنية ما. لاسيما المتشابهة المتكررة يكون التغيير فيه بقدر معين، ويمارس لعبة التغيير بقدر مقدار التغيير الذي يحويه، فيمارس وظيفته في مدلول جديد مختلف عما كانت عليه البنى المتكررة السابقة. ونجده في كل مرة قد ركز على جانب معين من جوانب معناه وقصته. أي ان الاتجاه، أو التركيز الجديد في واحدة، أو أكثر من البنى المتكررة يظل محافظاً على مبدأ التناظر، أو التشابه بتواز تام، ولكن الوظيفة التي تؤديها البنية المعاكسة تكون مختلفة بحسب شدة المغايرة.

---

(1) ينظر: علم اللغة النصي: ٤٢-٤٤، الفن القصصي في القرآن: ١٤٠-١٤٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي-٩١١هـ وبالهامش (إعجاز القران للباقلاني)،المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان ١٩٧٣.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تفسير العلامة أبي السعود-٩٨٢هـ دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت،١٣٤٧هـ.

٣. إسرار التكرار في القرآن الكريم، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني-٥٠٥هـ دراسة وتحقيق عبد القادر احمد عطا، دار بوسلامة للطباعة، تونس ط١ ١٩٨٣.

٤. إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني-٤٠٣هـ تحقيق السيد احمد صقر، دار ومكتبة الهلال، بيروت د.ط،١٩٩٣.
٥. إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٦٤.
٦. الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمود السيد حسن مصطفى، القاهرة، مطبعة مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١٩٨١.
٧. أنوار التنزيل وإسرار التأويل (المعروف بتفسير البيضاوي)، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي-٦٩١هـ دار الجبل، ١٣٢٩هـ(د.ط).
٨. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي-٧٩٤هـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية. عيسى ألبابي الحلبي وشركاه ط١، ١٩٥٧.
٩. البناء الصوتي في البيان القرآني،د.محمد حسن شرشر، الطبعة الاولى، دار الطباعة المحمدية- القاهرة/مصر ،١٩٨٨.
١٠. البناء الفني لرواية الحرب في العراق، دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة، عبد الله ابراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد ط ١ ١٩٨٨.
١١. التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، ط٥، ١٩٧٩.
١٢. التعبير الفني في القرآن الكريم، د.بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٤.
١٣. التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم وحيد العزاوي ندار الضياء للطباعة، عمان _الأردن،ط١، ٢٠٠٠.
١٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠هـ)دار المعارف، مصر، ١٩٨٥.
١٥. جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، احمد ياسوف، دار المكتبي، ط١، ١٤١٥هـ،١٩٩٤.

١٦. الدر المصون، أبو يعقوب يوسف السكاكي (ت ٦٢٦هـ) عادل عبد الموجود وزميله، دار الكتب العلمية.
١٧. دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، د.سليمان الطراونه،ط١، ١٩٩٢.
١٨. سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نقرة، الشركة التونسية لفنون الرسم، ١٩٧٤، (د.ط).
١٩. الصورة السمعية ودلالتها البلاغية في القرآن الكريم، عباس حميد السامرائي، أطروحة دكتوراه، آداب بغداد، ٢٠٠١.
٢٠. الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان، دار المنايرة، جدة _السعودية، ط١، ١٩٩١.
٢١. علم اللغة محمود السعران، مطبعة دار المعارف، ١٩٦٢.
٢٢. الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد احمد خلف الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧.
٢٣. في ظلال القرآن، الشيخ سيد قطب، طبع دار الشروق، بيروت، ١٩٨٠.
٢٤. القصص القرآني في منطقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، مطبعة السنة المحمدية، ط١، ١٩٦٤.
٢٥. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي (ت٥٢٨هـ)طبع دار الريان للتراث، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٢٦. اللغة العربية معناها ومبناها، د.تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣.
٢٧. المحرر الوجيز، ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب)تحقيق علي عوض وزميله، دار الكتب العلمية.
٢٨. معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء(ت ٢٠٧هـ)الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.
٢٩. مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ عبد العظيم الزر قاني، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.

٣٠. النشر في القراءات العشر، لابن الجزري أبي الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ)تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع، مطبعة مصطفى محمد، مصر (د.ت).